الوطن وما يجب علينا لهُ

(تابع ما قبلهُ)

وعلى هذه الليجان عضد الحركة القائمة لتوسيع زراعة القطن وغيره من المحصولات التي تصلح لها تربة البلاد . فالزراعة هي مصدر الثروة الحقيقي ويساعدنا عليها ان البلاد جيدة التربة عموماً طيبة الهواء كثيرة الماء وفيها جبال واودية يسقيها المطر وتجود فيها انواع الاشجار ذات الخشب الثمين كالارز والسنديان والجوز حتى كان ملوك مصر وملوك بابل واشور يأخذون الخشب منها لبناء سفنهم وقصورهم وهياكلهم وبقي هذا شأنهم الى عهد غير بعيد

قال بعضهم للبلاد ثلاثة موارد للثروة : اولها الحرب كما أثرى الرومان بنهبهم جيرانهم المغلوبين . وثانيها التجارة وهي قلّما تخلو من الغش والخداع . وثالثها الزراعة وهي الطريقة الوحيدة الشريفة التي يبذر الفلاح بها بذورهُ في الارض فتنمو بطريقة عجيبة وتعود عليهِ اضعافاً جزاء من الله لهُ على امانتهِ وحياتهِ الطاهرة في الحقل بين الزرع والضرع

وقولهم هذا وان كان لا يخلو من بعض المبالغة فانهُ جليل المعزى بالنسبة الى الزراعة

ونحتاج ايضاً الى جمعية ثالثة من المتمولين لاحياء الصناعة وتنشيطها بكل ما يستطاع من الوسائل فان الصناعة تكاد تكون الآن اسماً لغير مسمى كما اشرت سابقاً وما من شيء يمنع البلاد من ان تكون من ارقى البلدان الصناعية لان فيها قوة مائية تقدّر بمئات الالوف من الاحصنة وفيها معادن ثمينة من الحديد والحديد والقوة هما اساس الصناعة في هذا العصر وقد قطع الاوربيون والاميركيون شوطاً في الصناعة لم يبلغهُ العالم منذ بدء التاريخ على ما نعلم بكثرة ما عندهم من الحديد والفحم الحجري الذي منهُ القوة . ويطول بي الوقت اذا اخذت في تبيان بعض ما وصلوا اليهِ في هذا المضمار في كل نوع من انواع الصناعة وفي كل فرع من فروعها مما انحصرت فانهم ذلّلوا الطبيعة وتحكموا بما فيها من العناصر حتى انقادت اليهم صاغرة واصبحت طوع بنانهم في كل غرض من اغراضهم واذا لم اذكر اعمالهم الكبيرة العظيمة الشأن التي بلغوا بها حد الاعجاز وآلاتهم الميكانيكية وبواخرهم وطيّاراتهم وسككهم الحديدية ومدافعهم الضخمة وغواصاتهم

ومعداتهم الحربية فلا استطيع ان اغضي عما اخترعوه واتقنوه من الآلات والادوات الاخرى التي تستخدمها كل يوم في قضاء حاجاتنا المختلفة

انظروا الى بيوتكم وما فيها من اثاث وبرياش وادوات وآنية على اختلاف انواعها فانها كلها صنعهم

وانظروا الى اشخاصكم نساءً ورجالاً فان كل ما على اجسامكم من الرأس الى القدمين وما في جيوبكم من ساعات ونقود واوراق مالية ومحافظ جلدية كلها صنعهم

وعليه فيكون من شأن الجمعية الصناعية تأليف اللجان لمساعدة الصنّاع وارشادهم الى ما يرقون به صناعاتهم وارسال النابغين منهم الى اوربا ليتعلموا الكثير من الصناعات فانها الآن ليست سرًّا من الاسرار بل صارت علومًا مباحة لمن يريد تعلّمها

واذا نشرت الدعوة لانهاض الصناعة وترقيتها في البلاد فلا شك انها تصادف ارتياحًا عند الذين يريدون ان يكون لهم وطن بالمعنى المقصود فيساعدونها ادبيًّا وماديًّا بكل ما يستطيعونهُ من الناحية الواحدة ويقبلون على تعليم ابنائهم الصناعات اللازمة للبلاد من الناحية الاخرى

كان في بيروت وغيرها جمعيات علمية اهمها الجمعية العلمية السورية والمجمع العلمي الشرقي وكان فيها جمعية للصناعة ولكنها كلها لم تعش طويلاً لاسباب انقضت ومضت. اما الآن فقد تغيّرت الاحوال واصبح العمل ميسوراً ولكن العبرة في ان تستمر هذه الجمعيات ولجانها متى تألفت على العمل يومًا بعد يوم وسنة بعد سنة دون ان يعتريها ملل او يتسرّب اليأس الى قلوب اعضائها مهما حال دونهم من العقبات واعترضهم من الصعوبات فالشقة طويلة والطريق محفوف بالمكاره

واهمّ شيء في عمل هذه الجمعيات هو ان يسعى اعضاؤها ليكسبوا عطف الحكومة ويكونوا على اتصال بها في كل حركاتهم المهمة فان الحكومة تتهلّل ازاء نهضة كهذه وتعضدها عملها واختيار رجالها ولاسيما اذا وجدت ان الجمعيات المشار اليها مؤسسة على مبادئ قويمة غايتها خدمة المصلحة العامة لا المآرب الشخصية فانهُ ليس من يعلم اكثر من رجالها ان السجون هي الجزء المتمم للمدارس وانهُ بقدر ما ينقص عدد هذه يزيد عدد تلك وان خير وسيلة لاستتباب الراحة والسكينة في البلاد ليس الاكثار من الجند بل الاكثار من المدارس وتشجيع العمل في الصناعة والزراعة وعليه فلا يبعد ان ينضمّ الى

اعضاء الجمعيات عدد من موظفي الحكومة الذين يخدمون المعارف والزراعة والصناعة فيكونوا اكبر عون لهم

ومما يساعد الجمعيات في مهمتها اشتراك اساتذة هذه الجامعة وغيرها من المدارس العالية معها في العمل فانهم يقوّمونها بخبرتهم و يدخلون في مدارسهم ما يرونهُ صالحاً من اقتراحاتها لتعليم الناشئة وتهذيب الاخلاق

انى لا اقصد بهذا القليل من البيان وضع الخطة كاملة بل توجيه النظر الى الفكرة . اما وضع التفاصيل وكيفية العمل فننظر فيهما الجمعيات واللجان بعد تأليفها مسترشدة بالاختبار ومقتضيات الاحوال

ليس منكم من يعلم اكثر مني الصعوبات التي تكتنف اخراج هذه الفكرة الى حيّز العمل. ولا شك ان الكثيرين لا يزالون يظنونها مستحيلة او ضرباً من الاوهام ولا الومهم في ذلك فاختبارنا الماضي يضعف حبل الأمل ولكن يجب ان لا يقطعهُ

ولنا مثال حديث في اليابان ونهضتها العلمية والصناعية والزراعية والاجتماعية وما فعلهُ المتعلمون من ابنائها بمثل هذه الجمعيات لمساعدة الحكومة والى اي اوج اوصلوها مما يدلنا دلالةً صريحة لا تقبل نقضاً ان الانسان ابن التربية والتعليم . وان العلم من اقوى الوسائط المؤثرة فيهِ والمغيّرة لهُ

لقد وقع نظري حديثاً على بيان عن صادرات البلاد الواقعة في منطقة الانتداب الفرنساوي وواردتها فترجمت فيهِ الخبر لاني وجدت ان الصادرات التي كانت قيمتها في سنة ١٩٢١ نحو ٦٩ مليون فرنك زادت الى ٣٤٠ مليوناً في سنة ١٩٢٤ اي انها قد اصبحت نحو نصف الواردات بعد ان كانت نحو عشرها في سنة ١٩٢١ وفي هذا دليل على ان البلاد اخذت تفيق من غفلتها وتعمل لتنهض من كبوتها وتشتري حاجاتها بما تصدرهُ من حاصلاتها ومصنوعاتها لا من متجمع ثروتها القليلة

ولكن اذا دقق المرء نظره في ما تستجلبهُ من الخارج وجد متسعاً للبحث فيما يمكن الاستعاضة منهُ بما في البلاد من محصول ومصنوع . وفي هذا مجال للجمعيات واللجان المشار اليها آنفاً للعمل ومظهرٌ من ابهى مظاهر الوطنية واشرفها فتنشط اليد العاملة عندنا ويخف تيار المهاجرة الذي يكاد يقضي على البلاد

ولربما كان اقبالنا على البضاعة الوطنية السبيل الى عودة كثيرين من الذين هاجروا وازدياد اليد العاملة ونموّ ثروة البلاد نموّاً مطرداً. ولا ضرب مثلاً او مثلين على ذلك فاننا

لا نزال نستجلب الجلود المدبوغة من الخارج افلا نستطيع اتقان الدباغة والاكتفاء بجلود حيواناتنا؟ ولا نزال نجلب مختلف البضائع الحريرية والاقمشة من الخارج افلا يمكننا الاستغناء عن بعضها بتنشيط حياكة الحرير عندنا؟ ولا نزال نأتي بمقادير كبيرة من الدقيق من الخارج على اختلاف انواعهِ لعمل الخبز او بعض المأكولات افلا يمكن الاعتماد على دقيقنا او التوصل الى طريقة نجعلهُ بها كالدقيق الاسترالي

ولا نزال نستورد كثيراً من الاثمار المجففة والمربّيات من اوربا . وبلادنا من اغنى البلاد في الاثمار افلا يتيسر لنا ان نرشد المزارعين واصحاب الاراضي الى طرق تجفيف الفاكهة وحفظها في العلب ونقلها الى البلاد التي بها حاجة اليها . ولنقس على هذه الامثال غيرها مما نستوردهُ من الخارج وهو ميسور لدينا او في الامكان جعلهُ ميسوراً ببعض الاهتمام والعناية

وصفوة القول ايها السادة انهُ اذا شئنا ان يكون لنا وطن وجب ان نعمل وان نثبت في العمل معتمدين على انفسنا من غير يأس او ملل لاني اعتقد اننا لابد من ان نفوز بالنجاح اخيراً واعتقادي هذا مبنيٌّ على حقيقتين جوهريتين يمكن اثباتهما عمليًّا وحقيقة ثالثة يمكن اثباتها نظريًّا وان شكَّ البعض فيها : الاولى ان الشعب السوري قد مرَّ على سنن الارتقاء وبقاء الاصلح فكوّنت فيهِ ما نراهُ من اعتدال قامتهِ وبياض بشرتهِ وتجعّد شعرهِ وملامح وجههِ وتلافيف دماغهِ ونحو ذلك من مميزات ارقى الامم في العصر الحاضر وعصور التاريخ السالفة وذلك لانهُ كما ذكرت آنفاً من سلالة الاراميين والفينيقيين والعبرانيين واليونان والعرب وكلهم من الامم ذات التاريخ المجيد

الثانية ان سوريا نفسها قابلة للارتقاء من حيث اعتدال اقليمها وجودة تربتها وكثرة القوة المائية فيها ووقوعها على ساحل بحر الروم بين مصر والعراق وبرّ الاناضول . ففي البلاد وفي جنس السكان كل لوازم الارتقاء ولا حاجة لان ابرهن على هاتين الحقيقتين بذكر نوابغ السوريين في كل فن ومطلب في بلادهم وفي غيرها من البلاد التي هاجروا اليها مبتدئاً منذ اكثر من اثني سنة ومنتهياً في عامنا الحاضر ، او ببيان ما كانت عليهِ دمشق وصور وصيدا واورشليم وتدمر وبيروت وطرابلس وارواد واللاذقية في كل العصور الغابرة وما بلغتهُ من التفوق في العز والصناعة والتجارة مما اتيت على ذكر بعضهِ

والحقيقة الثالثة هي ان ارقى امم العالم الغربي واقواها وهي اميركا وانكلترا وفرنسا آخذة في تطوُّر انساني حثيث متحوّلة من الأثرة او الانانية المحضة الى الغيرية المعتدلة .

وبعبارة أخرى ان هذه الامم أخذت ترى ان مصلحة غيرها من مصلحتها وان عطفها على الامم الضعيفة وانهاضها ومؤاخاتها تعود عليها وعلى تلك الامم بالخير فهي تساعدها على الرقي جهدها آخذة على عاتقها اذا دعت الحال الى ذلك تدبير شؤونها حتى اذا آنست منها الكفاءة للاستقلال باعمالها والسير الى الامام تركتها وشأنها قائمة بكسب صداقتها . هذا من الجهة الواحدة ومن الجهة الاخرى فان الشرق على بكرة ابيه أخذ ابناؤهُ يشعرون ان الوقت قد آن لطرح رداء الخمول عن اكتافهم والجري في غلاء المجد . فاستيقظت فيهم روح اسلافهم ونهضوا نهضة عامة لتقوية شؤونهم الادبية والمادية والسياسية واعادة سابق عزهم وبدأوا يعملون . هذه هي الحقائق الثلاث التي بنيت عليها اعتقادي بالنجاح فعسى ان لا تكذبني فيهِ الايام وتجعلهُ بارقاً من المنى او حلماً من الاحلام

***

في العالم في عهدهِ الحديث ايها السادة فكرة راقية تهب وتخبو من حين الى حين وهي شيوعية الوطن او الاخاء الانساني العام . ومعنى ذلك ان لا يكون للانسان وطن خاص محدود من اربع جهات ولا امة خاصة بل يكون العالم بأسرهِ وطن الجميع أينما شاؤوا حلوا وحيث شاؤوا ارتحلوا . وطنهم كل بقعة وامتهم الجنس البشري لا فرق فيهِ بين الغربي والشرقي والاميركي والاوربي والاسيوي والافريقي ولا بين السود والبيض والصفر والسمر . بل الكل اخوة لهم حقوق واحدة ومثلة واحدة

وليس مؤتمر السلام ومؤتمر نزع السلاح والتحالف بين الممالك والتحكيم الدولي وجمعية الامم سوى مقدمات لهذه الغاية السامية سواء كانت مقصودة بالذات او كانت الامم مدفوعة اليها بعامل الخوف على كيانها بعضها من بعض . ولاسيما ان الحروب الآتية ستكون فيها من عوامل التخريب والتدمير والفتك بالارواح ما يجعل الحرب الكبرى الحديثة العهد شيئاً لا يذكر بالنسبة اليها . وما عمل الامة الاميركية بانشاء هذه الجامعة وغيرها من المدارس في سوريا وسائر المشرق للتعليم والتهذيب وترقية الاخلاق ، ولا المبادئ التي وضعها رئيس حكومتها اثر الحرب العالمية ولا الانتداب بالمعنى الذي نقصدهُ جمعية الامم سوى تأييد فعلي لهذه الفكرة الراقية وخطى واسعة نحو تحقيقها

اذا راجعنا تاريخ رقي الانسانية من اول عهدها أمكن قسمتهُ على وجه التعميم الى خمس مراحل : الاولى المرحلة التي كان يعيش الانسان فيها فرداً شريداً في الغابات مسكنهُ الكهوف وأعالي الاشجار . والثانية المرحلة التي اصبحت لهُ فيها اسرة يرتبط بها

برباط القرابة ويتحد معها على دفع اذى غيره من الوحوش وشر الامم الاخرى

والثالثة المرحلة التي انضمت فيها الامم بعضها الى بعض واصبحت تعيش جماعات او قبائل او عشائر مرتبطة برباط العنصرية تعمل كل قبيلة او جماعة لنفسها ولو كانت سعادتها متوقفة على الاضرار بسواها

والرابعة المرحلة التي اتحدت فيها القبائل والعناصر معاً واصبحت امماً تعالج كل امة منها اسباب سعادتها في البلاد التي اتخذتها وطناً لها متضامنة متكاتفة

والخامسة هي المرحلة التي لا تزال فكرةً في مهدها . مرحلة الاخاء الانساني العام وشيوعية الوطن . هذه المرحلة وان عدّها الكثيرون وهماً من الاوهام وضرباً من المحال يجب ان تكون غرضنا الاسمى نحن ابناء هذه الجامعة ومعاشر المتعلمين . وهذا الغرض الاسمى الذي لا كمال بعدهُ في رقيّ الانسانية لا تناقض بينهُ و بين مبدأ الذين يقولون بالوطن الخاص، بل هو نتيجة لهُ اذا كان أساس بناء الوطن الخاص العلم الصحيح والغاية القويمة التي تغرسها هذه الجامعة بين ابنائها

انما نحن ايها السادة لا نزال في المرحلة الثالثة مرحلة الجماعات في بيئة وحداتها متناظرة سريعة الى التوائب لا رابط بينها سوى التقهقر الادبي ويجب ان نتخطاها الى المرحلة الرابعة مرحلة الامة والوطن الخاص وذلك بالوسائل التي بيّنتها في عرض كلامي

ولا فرق بين ان يكون هذا الوطن الخاص لبنان او دولة الشام او غيرهما فاني على يقين اننا اذا بدأنا بالعمل بجدّ وثقة بالمستقبل وانفسنا لا يطول الزمن حتى يجمع العلم العالي والتهذيب الصحيح هذه البقاع المختلفة والعناصر المتغايرة في وطن واحد ويجعل من ابنائها امة واحدة رفيعة المنزلة في العيون عظيمة القدر في النفوس جديرة بنقل خطاها الى المرحلة الخامسة وتسنم ذرى المجد في ملكة البشرية فهل نحن بادئون ؟

هنالك بداءة سهلة المتنال لا نعالج فيها شدّةً ولا نعاني نصباً وهي ان نعتقد النيّة منذ الآن نحن المتعلمين من ابناء هذه الجامعة وسواها ان نعمل افراداً فنبثّ المبادئ السامية التي ربينا عليها في مختلف مدارسنا بين ظهراني ابناء بلادنا حيث كنا ، ونكون قدوة صالحة لهم باعمالنا واخلاقنا وسيرتنا وتسامحنا واجتهادنا والتضحية في سبيل المصلحة العامة وان نكوّن نواةً يتجمع حولها محبو الوطنية المتألمون من تقهقرنا الادبي والاجتماعي والدين لا يستطيعون الثبات وحدهم امام العواصف والعوامل المختلفة التي تعمل على القضاء على تكوين الوطن

فاذا كان الواحد منا موظفاً في الحكومة وجب عليهِ ان يُري الغير باعمالهِ ان الوظيفة ليست وسيلةً للغنى او فرصةً سانحة لتوظيف الاقارب والاصدقاء والتكيد من الخصوم بل هي امانة في يدهِ من الله يجب ان تستخدم في قضاء اعمال العباد وان يكون هو في استخدامها مثالاً للنزاهة والتفاني في العمل بعيداً عن المحاباة فوق الاحزاب والغايات

واذا كان مزارعاً وجب عليهِ ان يعتني بزراعتهِ ليقتدي بهِ جارهُ ويطبع على غراره فلا تكون محصولات بلاد اخرى من حبوب وفاكهة وبقول وغيرها افضل من محصولات ارضهِ . واذا كان صانعاً وجب عليهِ ان يتقن صناعتهُ فلا يبقى فيها على ما ورثهُ منها من ابيهِ او تعلمهُ من معلمهِ بل ان يرقيها حتى لا تكون لمصنوعات بلاد اخرى من نوعها ميزة عليها . واذا كان تاجراً او طبيباً او مهندساً او محامياً وجب عليهِ ان يتقن عملهُ ويلازمهُ متابعاً فيهِ آخر ما وصل اليهِ العلم لا قانعاً بما درسهُ في المدرسة لكي ينفي الاعتقاد السائد على اوهام البعض ان الاوربي او الاميركي امهر من السوري

واذا كان موسراً وجب عليهِ ان لا يحبس اموالهُ في خزائنهِ او ينفقها على اللذات الزائلة راضياً بالكسل والعيش الهني بل ان يستخدمها في الاعمال الزراعية او الصناعية لتزيد وتنمو وينفق منها في المرافق العامة ما امكنهُ فينتفع بما ينفقهُ هو وينفع الصناع والفلاحين من اهل بلادهِ

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضلهِ على قومهِ يستغنَ عنهُ ويذمم

ايها السادة : هذا بدء العمل الفردي وهو ان يكون الواحد منا مثالاً حسناً في اعمالهِ واخلاقهِ وقدوة صالحة للغير في النزاهة والامانة والتسامح وسواء نجحنا سريعاً في تكوين الجمعيات واللجان المشار اليها والعمل مجتمعين او لم ننجح فان العمل الفردي هذا لا بد ان يوصلنا الى العمل مجتمعين

ان تكوين الوطن ومجد الامة لا يأتيان جزافاً او على جناح البرق بل بالعمل المتواصل والجهاد الدائم والتضحية الغالية . ان الشقة طويلة والصعوبات جمة عظيمة كما قدمت ولكن الجزاء اعظم . قد لا نرى نحن هذا الوطن المنشود ولعل ابناءنا لا يرونهُ ايضاً ولكننا اذا عملنا فلا بدَّ من الوصول اليهِ وتكون قد وضعنا حجر الاساس في بناء الوطنية الحقة وصرح المجد فتموت مطمئني الضمائر اننا قمنا بقسطنا وادينا الواجب علينا

ما حك جلدك غير ظفرك فتولَّ انت جميع امرك

سعيد شقير